لامو جزيرة كينية تسبح في أروقة المحيط الهندي
كل شارع في المدينة يخبرك بأن العرب سكنوا هنا

كانت الطريق إلى لامو معبدة بألوان قوس قزح، فبعدما تركت ماساي مارا حلقنا مرة أخرى في الفضاء الكيني ليكون هبوطنا الأول في العاصمة نيروبي.

و انتهزنا جميعنا فرصة بقائنا ساعة و نصف الساعة لنخوض تجربة التسوّق في نيروبي التي بدت لي أنها تتعمّد اكتشافي لها بجرعات سريعة.

تركنا المطار المحلّي و توجهنا إلى السوق الشعبي المفتوح في الهواء الطلق وكان المطر قد سبقنا إليه، لندخل في متاهة كينية: بسطات فرشت بكل أنواع المشغولات و الأعمال اليدوية متحدّية المطر، عباءات تراقص الهواء الشتوي، و الحلي الإفريقية تعرضها بائعات ينادين على بضاعتهن منافسات للبائعين الرجال الذين يحاولون بشتى الطرق إقناعك بشراء التحف التذكارية المصنوعة من الخشب، فتحار من أين تبدأ وممن تشتري، خصوصاً أن المعروضات كلها مصنوعة في كينيا. أما المساومة على الأسعار فهي تجربة طريفة بحد ذاتها قد تصل إلى حسم 70 في المئة بحسب قدرة البائع و المشتري على الصمود و المناورة.

لم أشتر شيئًا لأنني لم أعرف ماذا أختار، فقررت ألا أخضع لإغراء التسوّق. و لكن أثناء خروجي من البوابة استوقفتني بائعة عجوز حفر الزمان على وجهها تجاعيده لتحكي بوجه هادئ ما لا يستطيع اللسان نطقه.

رغم أنها لم تدعوني للشراء وجدت نفسي مسحورة بما تعرضه و اشتريت عقدًا ظننت أنه سيجيبني عن أسرار المدينة التي تختبئ في عيني هذه البائعة.

عدنا إلى المطار و عاد معه تحليقنا و كان معبدًا بالغيوم البيضاء. رحت أتأمل من كوّة الطائرة المدن الكينية، و عند كل انفراج كان ينبثق أمام ناظري قوس قزح. و المفارقة أنه في كل مرة أخبر زملاء الرحلة كان يختفي، و كأن به يريدني وحدي أن أكتشف ألغاز العالم الكيني.

أخيرًا حطت الطائرة في مطار جزيرة لامو. هنا استعدت مشهد مطار مساي مارا و لكن مطار لامو محاط بالماء. كل شيء يوحي بأن الماء سيتلاعب بمخيّلتي... حملنا أمتعتنا و توجهنا نحو مرسى المراكب لنبحر في قارب متوجهين نحو منتجع كيبونغاني أكسبلورر Kipungani Explorer. رسا المركب عند شاطئ رملي رميت في أرجائه أكواخ من القصب. عند شاطئ الجزيرة استقبلنا مدير المنتجع و كان اسمه ديفيد أيضًا.

سنبيت في هذا المنتجع المنفتح على أحد أروقة المحيط الهندي. يعكس المنتجع ببساطته الأسلوب الأفريقي في الهندسة بكل تفاصيله.

كل شيء مفتوح على الهواء والبحر، و كل شيء مصنوع من الخشب و القصب و القش. تناولنا عصير الاستقبال و تسلمنا مفاتيح أكواخنا المنتشرة في الجزيرة.

وصلت إلى كوخي. كل شيء مصنوع من القصب.

تخيل أبواب المدخل و النوافذ و أرضية الكوخ من حصر القش و الخزانة رفوف من البامبو و السقف من القصب. كان كوخي مؤلفًا من طبقتين منفصلتين، غرفة نوم في الطبقة الأرضية و أخرى في الطبقة العلوية، فصلت عن الأولى بسلم خشبي مفتوح على الهواء. فقررت النوم في الطبقة العلوية حيث المشهد يخطف الأنفاس.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

أثناء العشاء، السؤال الأول الذي كان يشغل زملاء الرحلة ماذا لو حدث تسونامي؟ فأكد مدير الفندق لا يمكن أن يحدث هذا لأننا في المنطقة الداخلية للمحيط الهندي و هي شبه بحيرة. في هذا المكان يمكن القول إن من يريد أن يبتعد عن كل ما له علاقة بالعالم العصري و يحوز ذروة الاسترخاء ما عليه سوى حزم أمتعته و المجيء إلى هذا المنتجع.

فالكهرباء تقطع عند الثانية عشر ليلاً و لا يوجد تلفزيون في الغرف بل واحد وضع في غرفة الاستقبال. كل ما عليك هو الاسترخاء و النوم على صوت الأمواج و هي تداعب الشاطئ و الاستيقاظ على نور الشمس و هي تغازل الجزيرة العذراء, تناولت العشاء الذي اعتدت لذّته و الصحي جدًا.

أمضينا سهرتنا في المطعم المفتوح على البحر لكننا لم نطلها لأن مولد الكهرباء ينطفئ عند الثانية عشرة. توجهت إلى غرفتي و غططت في نوم عميق رغم وجودي في غرفة نوافذها مشرّعة.
استيقظت صباحًا على صوت حركة مد و جزر المحيط و مغازلة خيوط الشمس التي اخترقت ناموسية سريري.

كنت كلي حماسة لاكتشاف ما تخبئه لي لامو تناولت فطوري مع زملائي و ركبنا القارب متوجهين نحو مدينة لامو الموجودة في إحدى جزر الأرخبيل. أثناء الإبحار تذكرت جزيرة سيشيل، فالأشجار العملاقة والأحراج البحرية حوّلت الطريق البحرية إلى أروقة مشجرة تنبثق من البحر.

و من بعيد سمعت صوت الموسيقى يصدح تدريجًا إلى أن وصلنا إلى مدينة تضج بالصخب و الحيوية. ترجلنا من المركب عند المرسى و بدأت مغامرتنا.

ثاني أيام مهرجان لامو الثقافي، و الكل متأهب و السكّان يحتفلون و على طرفي أروقة البلدة انتشرت خيم أجنحة المهرجان، كل جناح يعرض لتراث الجزيرة الثقافي، فهنا جناح للمشغولات اليدوية، تجاوره خيمة تتفنن صاحبتها بنقش الحنّاء على أيدي النسوة... و عند ساحة القلعة البحرية ينتشر بعض الشيوخ جالسين يتأملون صفحات الزمن المتراكم في هذه الجزيرة التي تشبه الحواضر العربية بكل تفاصيلها، بحسب المرشد السياحي.

فإن هذه المدينة وصل إليها آل النبهاني، فرع من قبيلة كانت تحكم سلطنة عُمان بين القرنين الثاني عشر و الرابع عشر، و من المرجح أنهم وصلوا إلى أرخبيل لامو في القرن الرابع عشر و أسسوا إمارة لهم فيها من خلال مصاهرة العائلة الحاكمة في المدينة، و انتشر تأثيرهم الثقافي و الديني على كيلوا في الجنوب و مقديشو في الشمال، و في نهاية القرن ربطت علاقات تجارية متينة بين بايت ومصر.

ثم غزا الجزيرة البرتغاليون محاولين السيطرة على طريق الهند, ثم أتى بعدهم الأتراك و تركوا بصماتهم الخاصة بهم، ثم عاد إليها العُمانيون في القرن الثامن عشر و استقرّ بعضهم فيها. و هكذا تبدو المدينة ملتقى حضارات الشرق و الغرب.

و لكن اللافت أنه على الرغم من أن العمانيين كانوا أوّل غرباء يحكمون المدينة فإن تأثيرهم كان الأقوى و يبدو ذلك جليًا على أزياء سكان المدينة التقليدية و عاداتهم و تقاليدهم، فعندما يرفع الأذان تجد الجميع يهرول إلى المسجد لأداء الصلاة فتغلق المتاجر و الحوانيت.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

و حتى أسماء الزواريب فيها عربية فتجد عبارة بندر عباس عند بوابة أحد البيوت، و في معظم أروقة المدينة تنتشر المدارس القرآنية إضافة إلى الجوامع تجاور البيوت ذات النمط العربي المبنية من الحجر. أما الأبواب فأشبه بتحف فريدة مزخرفة بشكل أنيق يعكس مهارة الكينيين عمومًا و سكان لامو خصوصًا في الزخرفة.

بدت لي أروقة المدينة متاهة من المتناقضات الغريبة، فالأحياء متصلّة بعضها ببعض. و اللافت أن أمام عتبة كل بيت مقاعد اسمنتية يجلس عليها الضيف الرجل، فمثلاً عندما يأتي أحدهم لزيارة صديقه و احترامًا لسيدة البيت عليه الجلوس في الخارج حيث يُقدم له الشاي أثناء انتظار رجل البيت. و أحيانًا قد يمضون وقت الزيارة كله عند هذه العتبة، أما النسوة فقديمًا كن لا يخرجن إلى الشارع و إذا أردن زيارة بعضهن هناك أروقة داخلية علوية تصل البيوت ببعضها.

غير أنه راهنًا لم تعد هذه الأروقة تقوم بوظيفتها الاجتماعية فالنسوة في إمكانهن الخروج من المنزل. أمّا الهندسة الداخلية للبيوت فيطغى عليها الطابع الشرقي لا سيّما الدمشقي، فهناك صحن الدار تتحلق حوله غرفة نوم الزوجين و غرفة الأبناء و المطبخ. هنا تشعر بأنك في إحدى المدن العُمانية و لا عجب في ذلك لأنه على مر التاريخ كانت لامو محطة تجارية بحرية للعمانيين.

دوّختنا المدينة بتفاصيلها، فأردنا تناول القهوة لإنعاش حواسنا. لفتني في أحد أروقة المدينة وجود مقهى، فقررنا الدخول إليه. كان المقهى في السابق منزلاً، انتشرت في وسطه الطاولات المظللة بالأشجار الوارفة، أما الغرفة الداخلية فتحوّلت إلى مكتبة تباع فيها الكتب و المجلاّت المحلية و العالمية. كانت النادلتان مراهقتين تتقنان الإنكليزية بلكنة أميركية، مما أثار إعجابنا.

طلبنا قهوة الإسبريسو و كان الفنجان كبيرًا جدًا فقلت في نفسي أهل لامو كرماء. و أثناء ارتشافي قهوتي اقتربت منا سيدة بملامح غربية ترتدي العباءة و تضع على رأسها غطاء، و كانت تهتم بكل تفصيل، و بدت أنها ليست زبونة. أثار وجودها فضولي.

إذ ماذا تفعل سيدة غربية في هذا المقهى!عرّفتني عن نفسها إنها صاحبة المقهى و والدة النادلتين اللتين لم ترثا شيئًا من ملامحها. انهالت عليها أسئلتي فحدّثتني قائلة: « أنا أميركية جئت إلى كينيا كناشطة اجتماعية قبل حوالى 25 عامًا، و كان نصيبي الارتباط بزوج كيني.

و عندما توفي عدت إلى واشنطن لكنني لم أتحمل ابتعادي عن لامو التي عشقتها و لي فيها أجمل الذكريات، فتعرّفت إلى زوجي الثاني و رزقت ابنتين و صبيًا ». غيّرت صاحبة المقهى الأميركية اسمها من هايدي إلى خديجة عندما اعتنقت الإسلام منذ عشر سنوات. بدت خديجة شغوفة بالجزيرة و تتحدث عنها كما لو كانت موطنها الأصلي، و هي تصدر مجلّة فصلية «شونجو» Chonjo وتعني مستعدين، استغربت كيف يمكن هذه السيّدة أن تصدر مجلّة رغم عدم توافر الأدوات التكنولوجية لإصدار مجلّة في جزيرة لا يوجد فيها سوى مقهى واحد للإنترنت.

بالفعل تقوم خديجة بتحد كبير، فعندما تصفّحت المجلة والمواضيع التي تتناولها وطريقة إخراجها.

تضاهي حرفيتها المجلاّت العالمية .

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

فخديجة تتحدى كل شيء و لا تكلّ و لا تملّ من مساعدة سكان الجزيرة في كل المجالات الثقافية و الصحية و الاجتماعية و التعليمية و البيئية. تخاف على ذوبان الجزيرة في طاحونة العصر التي لا ترحم، و هدفها المحافظة على التقاليد و العادات و في الوقت نفسه الانفتاح على كل ما يطوّر الجزيرة. لا أنكر أن هذه السيّدة جعلتني أعيد التفكير في كل ما أقوم به من دون أن تقصد.

تركنا مقهى خديجة و عدنا لنتوه في أحشاء المدينة، إلى أن اجتاح الجوع زملاء الرحلة، فجلسنا في أحد المطاعم لتناول الغداء. و بعد ذلك توجهنا إلى متحف لامو التراثي الذي يعرض للتاريخ السواحيلي للمدينة بكل تفاصيله.

كنت أوّل من أنهى زيارة أجنحة المتحف و وقفت في الخارج أتأمل حركة السكان، فهنا أطفال يلعبون ويحتفلون بالمهرجان الثقافي على طريقتهم، و مراهقون بعضهم منشغل بالموسيقى و آخرون يتبادلون أطراف الحديث. كان طريفًا مشهد الرجل الذي يركب حمارًا، و هو وسيلة التنقل في الجزيرة، و يتحدّث عبر الهاتف الخلوي، و ذاك الذي يتكلّم عبر هاتفين خلويين في الوقت نفسه و هو حافي القدمين. و أثناء جلوسي على رصيف الكورنيش البحري المقابل للمتحف.

سلّم عليّ رجل كبير السن فرددت له التحيّة و بدأ يطرح علي الأسئلة و عندما عرف أنني لبنانية علّق قائلاً: «تتحدثين العربية و أنا أيضًا».

و عندما انضم إلي محمد أبدى هذا العابر سعادته و قال له «أنت محظوظ لأن اسمك محمد». و كان الرجل يملك مطعمًا و قال إنه مشهور جدًا في كينيا و كل السياح يزورنه ليتناولوا أشهى الأطباق التي يحضّرها أمام مرأى رواد مطعمه، فضلاً عن أنه يغني و ابنه يعزف الموسيقى. و دعانا إلى مطعمه لكننا اعتذرنا منه لأننا كنا قد تناولنا الغداء و لا نستطيع أن نبقى في البلدة بعد السادسة مساء، لأن القوارب تمنع من الإبحار بعد هذا التوقيت. أنهى باقي زملاء زيارة المتحف و قررنا العودة إلى معقلنا الهادئ جدًا مقارنة بصخب المدينة العائمة. أثناء الاستراحة في كوخي لاحظت وجود كتيب معلومات على الطاولة، فعرفت أن المنتجع ينتمي إلى سلسة فنادق أكسبلورر.

من بينها فندق أنتربيدز الذي نزلت فيه في ماساي مارا. و توفر هذه السلسلة مجموعة نشاطات ترفيهية للعائلات و تلامذة المدارس من سفاري و ألعاب مائية و مخيمات كشفية، مما يجعل تمضية الإجازة في هذا الفندق ذكرى جميلة.

انتهت ليلتي الأخيرة في كيبونغاني أكسبلورر. Kipungani Explorer

فحاولت قدر الإمكان الاستمتاع بالهدوء الذي تنعم به الجزيرة الموجود عليها.

عند الصباح كنا على استعداد للانتقال إلى فندق مجليس Majilis الموجود في ماندا إحدى جزر أرخبيل لامو، لكن يبدو أن المطر و الجزيرة تآمرا علينا لتأخير موعد رحيلنا، فأمضينا الوقت في تعلّم لعبة الباو التقليدية و هي تشبه لعبة النرجيس، عبارة عن صندوق من الخشب رقيق و طويل مقسم قسمين فيهما تجويفات عدة، لكل لا عب قسم و عليه أن يوّزع الحصى على التجويفات ثم يحاول نيل أكبر عدد من الحصى حتى يفوز، و الحقيقة أن اللعبة تحتاج إلى الكثير من التركيز و الحساب. اللافت أن ليليان و فاطمة و جون المرشدين السياحيين لا يعرفون شيئًا عن هذه اللعبة التقليدية و قد تعلّموها معنا نحن الغرباء عن البلاد.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

توقف المطر وتدنى منسوب أمواج البحر و ركبنا القارب متوجهين نحو منتجع مجليس. بعد حوالى 45 دقيقة من الإبحار في الأروقة البحرية وصلنا إلى المنتجع.

كانت هندسة المنتجع مختلفة تمامًا عن كيبونغاني أكسبلورر Kipungani Explorer رغم أنها تعتمد النمط الأفريقي و يغلب عليه الطلاء الأبيض. فمجليس مؤلف من فيلات عدة مؤلفة بدورها من طبقتين.

الطبقة الأرضية بهو الاستقبال الخاص بالفيللا فيما وُزعت غرف النوم في الطبقتين الأولى و الثانية.
بعد استكشاف الفندق و ما يقدّمه من خدمات أبحرنا إلى جزيرة شيللا التي تبعد عن مجليس عشر دقائق و حيث سنتناول غداءنا. كان الصيادون في شيللا منتشرين على الشاطئ يحضّرون شباكهم لليوم التالي. تجولنا في أرجاء الجزيرة التي يبدو أن عمليات الترميم فيها أوشكت على نهايتها، البيوت التراثية أعيدت إلى سيرتها الأولى بكل تفاصيلها، و أروقتها الضيّقة متاهة تزينت أطرافها بالأزهار المتدلية من أسوار البيوت العالية و النوافذ الصغيرة. و اللافت أن هذه البيوت يملكها أوروبيون، خصوصًا إيطاليين، يمضون إجازاتهم فيها. أما المتاجر فتعرض بشكل أنيق التحف التذكارية و المشغولات اليدوية لا سيّما الحلي، و تندس بين البيوت المدارس القرآنية و ينبثق وسطها جامع البلدة. يمكن القول إن شيللا جزيرة تحضن كل سحر أرخبيل لامو، فهي هادئة رغم جمالها الصارخ.

تناولنا غداءنا في المقهى المشرف على الشاطئ و كان لذيذًا كالعادة. رغم أن الكثير من الأوروبيين يملكون راهنًا في شيللا بيوتًا، فإنها لا تزال تحافظ على طابعها العربي الإسلامي، و التجوال بين أروقتها يترك العنان لعدسة الكاميرا لالتقاط الصور.

تركنا شيللا و عدنا إلى مجليس. فقررت انتهاز الفرصة و تجربة السباحة في المحيط الهندي.

الطريف أنني سرت حوالى 500 متر في البحر إلى أن وصلت إلى العمق المطلوب للسباحة، مما يعني أن الأهل هنا يمكنهم أن يشعروا بالأمان عندما يلعب أطفالهم على الشاطئ.

اعتدت في كينيا على وجبات الطعام اللذيذة و الصحية، و أثناء غدائي الأخير في فندق مجليس صرت أفكر في أنني سأعود إلى فوضى الغذاء بعد عودتي إلى بيروت، و إلى الواقع العصري الذي يجعلني في سباق مع خطى زمنه السريعة.

تركت جزيرة لامو و في قلبي غصة، فموعد رحيلي عن كينيا دنا. هذه السمراء الإفريقية التي جعلتني أتعرّف إليها برًا و بحرًا و جوًا، شغلت كل حواسي، و أخرجت كل منطقة فيها ما في جعبة ذاكرتي الإنسانية، ففي ماونت كينيا ارتفع منسوب الأدرينالين لساعة و نصف ساعة أثناء سفاري ركوب الخيل، و ماساي ماراي رمتني وسط عالم رحب، لقرع الطبول و الرقص فيه طقوس

في جزيرة لامو استحضرت رحلات جاك كوستو البحرية، أما نيروبي التي لم تمنحني سوى ومضات من سحرها فقد تركتني حائرة لم أحلّ كل ألغازها. إنه السفر إلى العالم العذري حيث يعمد الوقت إلى التباطؤ في أحضان طبيعة خلاّبة لا تخجل من استعراض جمالها الذي لا يعرف حدودًا.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١